

سورة السجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْم ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ أَمْرٌ يَقُولُونَ
أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿١﴾

أَفْتَرَاهُ : اختلق القرآن من تلقاء نفسه .

"هذا كتاب الله " : جملة وجيزة تتألف - على ما يبدو - من ثلاث كلمات غير أنها
جملة صعبة وثقيلة ، لدرجة أنه لم يجرؤ على التفوه بها أحد على مدار التاريخ سوى
أولئك النخبة الممتازة من البشر الذين كانوا قد نزل عليهم كتاب من عند الله حقاً ، ولو
تجرأ أحد يوماً على التفوه بهذه الجملة ، فإنه لن يكون إلا مهرجاً أو مصاباً بالجنون ، وإن
كونه مهرجاً أو مجنوناً لن يلبث أن يتضح بجلاء بعد مدة غير طويلة من الزمن .

أما القرآن الكريم فهو يحمل في ذاته برهان صدقه وحقيقته ؛ فأسلوبه المعجز ، وعدم
ثبوت أية أخطاء علمية في محتوياته على (مرجع سابق) القرون ، وانتصاره الحاسم على
أعدائه ومعارضيه .. إن هذه وما إليها من خصائص أخرى مماثلة تقيم الدليل القاطع
على أن القرآن كتاب منزل من عند الله - سبحانه وتعالى ، وما دام هو كتاب الله ، كان
لزماً على كل شخص أن يصغي إلى إنذاره ، ويتأمل فيه بمتهى الجدّة والإخلاص !

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى
الْعَرْشِ ۚ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ ۚ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِن

السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿١٠﴾
 ذَٰلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ
 وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
 سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا
 تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

اَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ : استواء يليق بكماله وجلاله تعالى .

يَعْرُجُ إِلَيْهِ : يصعد الأمر ويرتفع إليه .

أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ : أحكمه وأتقنه .

سُلَالَةٍ : خلاصة .

مَاءٍ مَّهِينٍ : منى ضعيف حقير .

سَوَّاهُ : قومه بتصوير أعضائه وتكاملها .

المقصود بالخلق في ستة أيام (بمعنى ست مراحل أو فترات) هو التنبيه على ما
 صاحب عملية الخلق من عناية وتدرج .. وإن إبداع الكون المتدرج ونظامه البديع
 الحكيم يدلنا على أن للخالق - جل وعلا - هدفاً خاصاً من هذا الإبداع العظيم .

ثم إن هذا الكون تجري في أرجائه أعمال شتى ووظائف لا تحصى بإتقان وانتظام
 عجيب .. مما يثبت بمزيد الوضوح أن خالق الكون يقوم على تدبير شئونه بأسلوب
 مخطط تخطيطاً واعياً دقيقاً .

والإنسان كائن حي فذ، كل جانب من جوانبه مثار دهشة واستغراب، حيث يظهر،
 من تحليل جسده كيمياوياً، أنه مركب أساساً من التراب - أي العناصر الأرضية - ثم إن

خلقه الأولي هذا لم يتعرض للفناء وحده، بل تسبب في إيجاد غيره، فظل نوعه هكذا يتكاثر عن طريق التوالد والتناسل دون انقطاع.

وكل شخص يتأمل في هذه الوقائع بإمعان، ستندم وتتلاشى من صفحة ذهنه كل مظاهر العظمة الأخرى غير عظمة الله الواحد القهار، وسيعود بالتالي عبداً شاكراً لله .. ولكن قليل جداً أولئك الذين يتأملون بعمق وجديّة، وللسبب ذاته قليلون جداً من يقومون بواجب الحمد والشكر لله رب العالمين!!

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١﴾﴾
 قُلْ يَتَوَفَّنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿٢﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ
 الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ
 صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿٣﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي
 لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسَانِ أَجْمَعِينَ ﴿٤﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ
 يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥﴾﴾

ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ : ضعننا فيها وصرنا تراباً.

نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ : مطرقوها خزيًا وحياءً وندماً .

حَقَّ الْقَوْلُ : ثبت وتحقق ونفذ القضاء .

الْإِنْسَانِ : الجن .

إذا وقف المرء بين يدي الله - عز وجل - للحساب ، تلاشت كل معاذيره .. وسيقول الطغاة والمتجبرون يومئذ ، وهم منكسو الرؤوس : ها نحن قد أيقنا يا رب ، فردنا إلى الدنيا مرة أخرى لكي نعمل صالحاً .. غير أن إيمانهم هذا لن يجدي شيئاً .. إذ

لو كان الله سبحانه يريد إيماناً قسرياً كهذا ، لأرغم الناس جميعاً على الإيمان في الحياة الدنيا! . إن القيمة عند الله إنما هي للاعتراف الذي يتم بدون مشاهدة ، أما الاعتراف بعد المشاهدة ، فلا قيمة له مطلقاً !!

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِغَايَتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٧﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٨﴾

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ : ترتفع وتتحنى للعبادة .

مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ : من موجبات المسرة والفرح .

إن الهداية لا يوفق لها إلا الذين يملكون مزاج تلقى الصدق بالقبول الفوري إذا ما ظهر أمامهم ، حتى ولو تم إظهاره على يد رجلٍ "صغير" عادي المظهر، ولو كان الإقرار به بمثابة الإقرار على أنفسهم بالخطأ، ولو كان التسليم به مؤدياً إلى هدم خريطة حياتهم من القواعد وإقامتها على أسسٍ أخرى جديدة . إن الذين يتمتعون بهذه الروح المعنوية العالية هم الذين يظفرون بالصدق . وأما الذين يريدون أن يقرأوا بالصدق إقراراً لا يهدد كبرياءهم، ويضمن بقاء سيادتهم كما هي ، فإنهم لن يوفقوا للظفر بالصدق أبداً .

وإن مَنْ يفقد كبرياءه لأجل الحق يظفر بأكبر شيءٍ في الوجود ؛ ألا وهو كبرياء الله وجلاله ، ويسري الشعور بالله في أعماقه ، ويمتزج في حياته العملية بحيث إنه ينام وهو يذكره، ويقوم من الفراش وهو يذكره ، وتعود مشاعر خوفه ورجائه كلها مرتبطة بالله وحده .. ويهب نفسه وكل ما عنده لله ، بحيث لا يستبقى منه لذاته شيئاً . وأمثال هذا

هم الذين ستقرّ أعينهم في جنات النعيم الأبدية!!

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ۚ﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابِ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

نُزُلًا: ضيافة وعطاء وتكرمة .

المؤمن هو الذي يعترف بالصدق الإلهي ، وأما الفاسق فهو الذي حين يظهر الصدق أمامه ، يقابله بالإنكار والتكذيب حفاظاً على ذاته ومصالحه ، وظاهر أن هذين "دوران" يختلف كل واحد منهما في جوهره عن الآخر تمام الاختلاف ، وأن مصير دورين ، بينهما هذا الاختلاف والتباين ، لن يكون متساوياً ومماثلاً أبداً .

وإن الشخص الذي يعترف بالصدق في العالم الراهن ، يقيم دليلاً على أنه يجعل الصدق أكبر الأشياء إطلافاً ، ومثل هذا الشخص سيجعل في الآخرة "كبيراً" ، وعلى العكس من ذلك فإن الذي يعرض عن الصدق ، فإنما يعد نفسه هو الأكبر . وسوف يدخل شخص كهذا في عالم الآخرة الحقيقي ، قد جعل منه أصغر الصاغرين!!

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۚ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۚ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۚ﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٦٦﴾

في مِرْيَةٍ : في شك .

مِنْ لِقَائِهِ : تلقيه إياه بالرضا والقبول .

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ؟ : أغفلوا ولم يبين لهم ما لهم .

كَمْ أَهْلَكْنَا : كثرة إهلاكنا الأمم السابقة .

الْقُرُونِ : الأمم الخالية .

إن تحميل طائفة ما أمانة الكتاب الإلهي يعني تسليمها مقاليد الإمامة للعالم ، غير أن
مقام الإمامة العالمية لا ترتقي إليه طائفة إلا إذا أقامت الدليل على الصبر ، وفي تفسير ﴿ لَمَّا
صَبَرُوا ﴾ روي عن قتادة قوله : "أي لما صبروا عن الدنيا" (١).

والناس لا يدينون بالولاء لجماعة أو شخص ما ، باعتباره إماماً لهم إلا إذا
وجدوه يفوقهم بمزايا فكرية وعملية ، ويمتاز عليهم بخصائص معنوية سامية ؛ تجعله
يعيش للمبدأ في وقتٍ يعيش فيه الناس للمصلحة ، ويتحمس لمنصرة العدل ، عندما
يتحمس الناس لمنصرة مطالبهم القومية .. إلخ ، وهذا هو الصبر ، والذين يقيمون
الدليل على هذا الصبر ، يُقدر لهم وحدهم أن يكونوا أئمة الشعوب والأمم .

وإن الذين يثيرون الخلافات بين صفوف الأمة باختراع تفاسير جديدة للدين ، إنما
يعرضون أنفسهم لخطر أن يرفضهم الله وما أحدثوه في دينه رفضاً باتاً ، ولا يقع بالتالي
في نصيبهم شيء سوى الخزي والهوان الأبدي .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ، ص ٧٧ .

وإنه لا يكاد الإنسان ، في أغلب الأحوال ، يتذكر أو يعتبر ، إلا أن يمر عليه بدوره ما مرّ على غيره من قبل !!

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٢٠﴾

الأَرْضِ الْجُرُزِ : اليابسة التي قطع نباتها .

هَذَا الْفَتْحُ : النصر علينا ، أو الفصل للخصومة .

يُنْظَرُونَ : يمهلون .

لقد كان المشركون في مكة القديمة يتمتعون بالغلبة والتفوق بكل المقاييس ، بينما كان الإسلام مغلوباً مقهوراً من جميع النواحي والاعتبارات ، مما جعل المشركين يسخرون من ضعف الإسلام وسوء حال المسلمين ، وقد رد الله تعالى عليهم هنا بضرب مثالٍ بليغٍ فقال : أَلَسْتُمْ تَشَاهِدُونَ مِنْ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَنَّهُ حِينَ تَكُونُ بَعْضُ بَقَاعِ الْأَرْضِ يَابِسَةً جَرْدَاءَ ، بِحَيْثُ يَخِيلُ لِلنَّاطِرِ وَكَأَنَّهَا لَنْ تَعُودَ نَاضِرَةً خَضِرَاءَ مِنْ جَدِيدٍ أَبَدًا ، يَسُوقُ اللَّهُ نَحْوَهَا السَّحْبَ السَّودَاءَ الثَّقَالَ ؛ تَهْطَلُ بِالْمَطَرِ الْغَزِيرِ ، فَإِذَا بَتَلَتْكَ الْبَقْعَةُ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ أَيَّامٍ يَلْفُهَا الْغَبَارُ الْقَاتِمُ وَالسَّمُومُ الْإِلَافَةُ إِذَا بِهَا تَكْتَسِي بِصَنُوفِ النَّبَاتَاتِ وَالْأَزَاهِيرِ الْجَمِيلَةِ ، فَاللهُ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى هَذَا ، قَادِرٌ أَيْضًا عَلَى أَنْ يُمْكِّنَ الْإِسْلَامَ مِنَ الْازْدِهَارِ وَالِانْتِشَارِ إِلَى حِدٍ يَصِيرُ مَعَهُ هُوَ الْفِكْرُ الْغَالِبُ السَّائِدُ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَفِيهَا يَلِيهِ مِنَ الْعُصُورِ كَذَلِكَ !!